حول الترتيب التاريخي للزوميات المعري

قلنا في عدد مضى من الرسالة إن الدكتور عمر فروخ أرسل إلينا كتاباً مطولا حول هذا الموضوع يتهم فيه الدكتور عبد الوهاب عزام بكيت وكيت ، ثم لخصناه وعلقنا عليه بما رأينا أنه الحق . وفي يقيني أن الدكتور فروخاً لو عرف الدكتور عزاماً أكثر مما عرف لاستبعد عليه أن يسرق بحثاً من بيروت ليقرأه في مهرجان المعري بدمشق . ولكن الدكتور لم يرضه تلخيصنا لكتابه ولا تعليقنا عليه ، فبعث إلينا بكتاب آخر يرمينا في مقدمته بالتعصب للدكتور عزام والتستر على (جريمته) والخوف من (نفوذه) ، ويوعد بأنه سيطلب حقه من الدكتور عزام ومن بما طلب به المتنبي حقه في بيته المعروف ، فرأينا تكذيباً لظنه وتبديداً لوهمه أن ننشر كتابه بنصه . قال عافاه الله بعد (الديباجة) :

« طالعت المقالات التي كتبها الدكتور عبدالوهاب عزام عن لزوميات المعري وعن ترتيبها التاريخي في الأجزاء ٦٢٤ — ٦٢٥ ٦٢٦ من الرسالة الغراء ، ولقد لفت نظري أمران :

أولهما : أن الدكتور عزام قال في آخر المقال الثالث : « هذا ما بدا لي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بدا له ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليتفضل مشكوراً بالإدلاء برأيه والإبانة عن حجته » ومعنى ذلك أنه أول من فعل ذلك

وثاني الأمرين : أنني وجدت شبهاً عظيماً ، بل تطابقاً بين الأسس التي اتخذها الدكتور عبد الوهاب عزام لترتيب اللزوميات وبين الأسس التي كنت قد استخرجتها ثم جعلتها أساساً لكتابي « حكيم المعرة » الذي صدر في بيروت في شباط (فبراير) من عام ١٩٤٤

في هذا الكتاب عنيت بوضع أسس لترتيب اللزوميات ، إذ أنني كنت أحاول حل قضية معقدة ، هي ما ينسبه بعض المتأدبين ، من التناقض إلى حكيم المعرة . وبعد تدبر هذه القضية بدا لي أن ذلك راجع إلى أن ترتيب اللزوميات على حروف الروي ليس الترتيب التاريخي لها مما بسطته في موضعه

واستطعت بعد الدراسة والمقارنة أن أضع أسس ترتيب اللزوميات على خمس قرائن (حكيم المعرة ص ٢٤ — ٣٤) :

أولا : إشارة المعري نفسه إشارة عامة إلى نظم اللزوميات وترتيبها (ص ٢٤ — ٢٥ من حكيم المعرة)

ثانياً : الإشارات التاريخية وأشهرها قصة صالح بن مرداس (٢٦ — ٢٨)

ثالثاً : إشارة المعري إلى سني عمره في أثناء نظم اللزوميات (ص ٢٨ — ٢٩)

الناس — استدراراً لعطاياهم — بأخذ أمثال هذه الألاعيب . ولكن للفكاهة المستحبة مظهر من الجد ، ومرمى غامض من العبرة والموعظة بدونهما تكون عبثاً لا طائل تحته

ونظرية هذا القرد صائبة — أعني نظرية صاحبه — إذا نحن تأملنا منصب الوزير على عهدها ، وما كان يتهدد الوزراء يوم ذاك من خلع وقتل وحبس واستصفاء ، فما وجه نظرية حمارنا — أو حمّارنا — في الزواج ؟ !

الحق أن هذا الفتى الريفي وحماره يعبثان بقدر ما كان الشاطر البغدادي وقرده يجدان ؛ وفرق ما بين الأولين والأخيرين هو فرق ما بين المسلمين اليوم وأسلافهم في القرون الخوالي ... هو فرق ما بيني أنا — عربي القرن الرابع عشر — والتنوخي ناقل القصة وعربي القرن الرابع .. هو فرق ما بين دولة نفضت يدها من المجد أو كادت ، ودولة كانت تأخذ من المجد بأوثق أسبابه . فليذهب القراد والحمار جميعاً إلى الجحيم ، فما كان لهذه المقارنة العابرة بينهما أن تريبني في مستقبل الإسلام والعرب ، ولكني مع ذلك رجل مؤمل ومشفق معاً ، أخاف مثلما أرجو ، وأتشاءم لقاء ما أتفاءل . وأحب أن نكون — حتى في مزاحنا — جادين فلا تشغلنا القشور عن تعرف اللباب ، أو يصرفنا الغلاف عن تصفح الكتاب ...

ومن يدري بعد ، فلعل فرويدنا معذور في فعله ؟ بل لعله حكيم ثاقب الفكرة ، أليس يقدم لنا مزحته الجوفاء ، وما تنطوي عليه من فكرة حمقاء ، على يدي حمار أسود قمي ؟ !

رابعاً : الإشارة إلى تقدم سنه من غير أن يذكر السنوات صراحة كأن يتكلم على شبابه وشيبه وماله من الحياة وحبه لمفارقة الدنيا ... الخ (٢٩ — ٣٠)

خامساً : تطور أسلوبه فى نظم اللزوميات من حيث النضج والقوة (ص ٣٠ — ٣١)

* * *

وجاء الدكتور عبد الوهاب عزام فسلخ القرائن الأربع وذكرها على التوالى التى اخترته ، إنما بعد أن حذف القرينة الخامسة ، لأن البحث فى الأساليب أسبق من البحث فى غيرها . ويدهشك فوق ذلك كله أننى اعتبرت القرينة الأولى (أعنى إشارة المعرى نفسه إلى نظم اللزوميات وترتيبها) مقدمة لا غير ، لأنه لا يجوز أن أنسب إلى نفسى استخراج أساس أشار صاحبه إليه إشارة واضحة . ولقد فعل الدكتور عزام ذلك مثلى تماماً ، ثم بدأ بالإشارات التاريخية الخ على الترتيب نفسه لم يغير منه شيئاً

على أن هذا لا يمكن أن يكون توارد خواطر ، لأن الخواطر قد تتوارد فى بيت من الشعر أو فى رأى أدبى عارض ، أما فى بحث علمى طويل ذى فصول وفروع وتقسيم واستنتاج وشواهد وأمثلة فأمر مستحيل وخصوصاً إذا اتبع المتأخرُ المتقدمَ

ولقد كان توارد الخواطر ممكناً فى زمن تقطع بين أرجائه الصحارى والمدى البعيد ، أما اليوم فى عصر السيارات والطيارات والبريد السريع ، فأى عذر ينهض بالمتأخر إذ ادعى أن خاطره وخاطر المتقدم قد توارد ؟

بقى على الدكتور عزام أن يدعى أنه لم يطلع على كتابى ، وهذا مردود من وجهين :

أول ذينك الوجهين أن كتابى صدر قبل عام ونصف عام من صدور بحثه ، وأن الناشر فى بيروت قد أرسل نسخ كتابى إلى العالم العربى ، وأرسلت أنا إلى ناشر فى لندن عدداً كبيراً . ولقد نقدت كتابى المجلات ، وبعضها أشار إلى هذا الترتيب التاريخى .

وثانى الوجهين أن العالم الحقيقى لا يهجم على عمل مثل هذا إلا بعد أن يتقصى المكاتب ويفتلى الكتب والمجلات ، وخصوصاً إذا خطر له موضوع ذو خطر

* * *

وهناك أدلة أخرى على أن الدكتور عبد الوهاب عزام أخذ البحث عنى ولم يبدأه بنفسه ، منها أن نماذجه التى يدعى أنه استخرجها من اللزوميات لا تسند نظريته المدعاة ، فليس كل بيت فيه ذكر للسن راجعاً إلى سن المعرى . وكذلك ذكر الدكتور عزام فى الإشارات التاريخية أسماء « محمود ومسعود » ، وقد ذكرت أنا ذلك ولكن فى باب آخر (راجع ص ٩٤ من حكيم المعرة) للدلالة على أن عمر الخيام كان شديد التأثر بلزوميات المعرى ، فيما ذكرت من أدلة ذلك

عمر فروخ

وقد اطلع الدكتور عزام على ما نشرته مجلة (الأديب) وكتبته مجلة (الرسالة) ، فأرسل إلينا الكتاب الآتى :

الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

السلام عليكم . وبعد ، فقد اطلعت فى العدد الأخير من مجلة الأديب التى تصدر فى بيروت على كلمة عنوانها « إلى الدكتور عبد الوهاب عزام » وتوقيعها « قارئ » . وخلاصتها أن هذا القارئ أدرك تشابهاً بين مقالاتى التى نشرتها فى « الرسالة » عن لزوميات المعرى وبين بحث فى كتاب للدكتور عمر فروخ اسمه « حكيم المعرة » . وظن القارئ ، وبعض الظن إثم ، أنى أخذت « الفكرة والترتيب والأدلة والنماذج » من هذا الكتاب

وقد أرسلت إلى مجلة الأديب مبيناً أنى لم أطلع قط على بحث فى هذا الموضوع للدكتور عمر فروخ ولا لغيره قبل كتابة مقالاتى ولا بعدها . ولم أستطع أن أتكلم فى هذا التشابه بين البحثين حتى أطلع على الكتاب

ثم اطلعت اليوم فى الأسكندرية على العدد ٦٣٦ من الرسالة — وقد فاتتنى قراءته حين صدوره — على كلمتكم التى تقلتم فيها نبذاً من رسالة الدكتور عمر فروخ إليكم ، وأبديتم رأيكم فى الموضوع

وقد أخذت من هذه الكلمة أن بحث الدكتور عمر الذى وقع التشابه بينه وبين بحثى يرجع إلى ترتيب اللزوميات فحسب .

ومن قرأ بحثى فى « الرسالة » يعلم أن موضوعه : متى نظمت اللزوميات وكيف رتبت ؟ فهو قسمان : الأول : تحديد الوقت الذى نظم فيه المعرى لزومياته ؛ والثانى : بيان أن ترتيب اللزوميات على الروى يوافق الترتيب الزمانى أولا . والبحث الأول هو الذى

كلفنى قراءة اللزوميات كلها واستخراج الحوادث التى ذكرت فيها ، والرجال الذين ذكرهم الشاعر وتأريخ هذه الحوادث وهؤلاء الرجال واستقصاء الأبيات التى ذكر فيها المعرى سنّه ، والتى ذكر فيها سواد شعره ومشيبه ...الخ ، وقد انتهيت إلى أن الكتاب نظم بين سنتى ٤٠٠ و ٤٢٠ من الهجرة

وأما البحث الثانى المتضمن أن ترتيب اللزوميات غير سائر للتاريخ ، فالأمر فيه أم ، والفصل فيه يسير بعد الفراغ من البحث الأول

فهل يدعى الدكتور عمر التشابه بين كلامى وكلامه فى البحث الأول أو فى البحث الثانى ؟ الذى يؤخذ من الكلمة التى نشرتها الرسالة أنه يجادل فيما يتصل بالترتيب التاريخى وحده ، وكل من قرأ بحثى يعلم يقيناً أن كلامى فى هذا لا يمكن أن يؤخذ إلا من بحثى فى القسم الأول ، فهو نتيجة محتومة لى ، وهو ليس بذى بال بعد البحث الأول ، ولا يقتضى الباحث عناء ولا تعمقاً ، فليس معقولا أن أنقله عن غيرى بعد أن فرغت من البحث الأعمق الأشق الذى بنت فيه متى نظمت اللزوميات

ومهما يكن ، فإنى أعيد ما أرسلته إلى مجلة الأديب ، أن إلى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمة لم أطلع على بحث لأحد فى هذا الموضوع ، ولا رأيت كتاب الدكتور فروخ

ولو كان الفصل فى ترتيب اللزوميات وتبيين أنها ليست مرتبة على التاريخ يعد فتحاً فى الأدب ما أجزت لنفسى أن أنتحل فيه كلام غيرى ، وأن أسوم نفسى ما لم تعوده من الاتكال على أبحاث الناس ، بله النقل أو السرقة

إن هذا البحث وما هو أعظم منه وأشق وأجدى ، ليس عظيما من رجل مثلى يقرأ اللزوميات كلها قراءة فاهم ناقد

وكان خيراً للدكتور عمر ولمن كتب فى مجلة الأديب أن يرسل إلىّ الكتاب ويسألنى رأيى ، فإن المسارعة إلى اتهام مثلى بنقل كلام الناس لا يليق بالأدباء ، ولا يلائم تثبت العلماء

وأرجو أن تنشروا هذه الكلمة مشكورين . والسلام

(الأسكندرية ٧ رمضان) عبد الوهاب عزام

ملاحظة وتصحيح :

اطلعت فى البريد الأدبى بالرسالة تحت هذا العنوان على نقد للأبيات التى وردت فى كتاب « فى بيتى » للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، وقد أشار فيه الكاتب إلى أن صدرى البيتين الثانى والثالث خارجان عن البحر ، وأنهما لا يصحان على وجه من الوجوه . قال : ثم بحثت الأمر لأتأكده فظهر لى ما أدركته أولا ، كنا !

ولما كان الروى هو التاء المكسورة ، وكان الوقف لا يصح عليها ، لأن (القصر) لا يدخل البحر المجتث ، ظهر لى أن فى البيت الثالث إقواء ، فكلمة « أداه » فى البيت لا يصح جرها بحال

وأحب أن أعفى الأستاذ العقاد من الرد على هذا النقد ، فقد كان فى استطاعة الكاتب أن يرجع إلى هذه الأبيات فى ديوان « وحى الأربعين » ، ليرى أن الشاعر قد وضع علامة السكون على القافية ... وكان فى حل من وضع هذه الإشارة ، لأن القوافى ليست من حركة واحدة . . ويحسن بى أن أطلع القارئ على هذه الأبيات كاملة كما قرأتها فى « وحى الأربعين » ليصدر حكمه عليها :

النور سر الحياة النور سر النجاة
النور وحى النهى النور وحى الصلاة
النور شوق الفتى النور شوق الفتاة
إلهه بالروح لا لمح العيون الخواة
ما تبصر العين من معناه إلا أداة
هذا سبيل الهدى لا ما افتراه الهداة

ويتبين من هذه الأبيات أن وزنها :

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلان

بسكون التاء فى القافية ، وإذ كانت الموسيقى هى رائد الشاعر فى كل ما ينظم ، فمن واجب الناقد أن يجعلها المحل الأول حين يعرض لهذه الناحية من الكلام ، فقد يمن للشاعر أن ينظم على وزن جديد ، أو أن يأتى بنظام لم يسبق إليه ، وهو بعد صحيح سليم تتقبله الأذن وتستطيبه النفس

فمن الحجر على الشعر والشعراء أن نقول لهم : قفوا عند حدكم ، فإن الأقدمين قد وقفوا عند هذا الحد . هذا لغو وجمود لا أحب أن يبتلى به الشعراء فى القرن العشرين

والمطلع على أبيات الأستاذ العقاد يجدها سليمة من ناحية الوزن قوية من ناحية الموسيقى فضلا عما بها من المعانى السامية ، ولا يطالب الشاعر بأكثر من ذلك محمد طاهر الجبلاوى